

خمسة أيام في سجن دولة الفصل العنصري

زوكيسوا فانر، جنوب أفريقيا

ترجمة: مجد يازوري، فلسطين

إننا الآن في سجن "كتسيعوت" في صحراء النقب، ونحن لا ندعي أننا نرسف في أصفادنا البلاستيكية، بل نسلّمها مباشرة للسجّانة الجديدة التي تقطعها عن معاصم الآخرين. وضعنا في قفص ذي سقف معدني يبدو أنه يتسع بشكل مريح لخمسين شخصاً، لكننا محشورون فيه كالسردين. هذه هي المرّة الأولى التي أرى فيها مواطني، زهيرة، منذ آخر لقاء بيننا في البحر عندما سلّمنا بعض الطعام لقاربهم. لقد استدعيّت من القفص من قبل سجّانة أخرى تحمل ملفّي. [والثّقطت لي] صورةً أخرى. وددت لو كان لديّ بعضاً من ملمّع الشفاه. لقد أخذتُ إلى كرفان معدني وطلّب مني خلع جميع ملابسني، التي يجب أن أضعها في حقيبة سوداء وضع عليها رقم، وقيل لي: "ستسترجعين ملابسك عندما تغادين." لم أسترجع ملابسني أبداً. وتبدأ نظرية المؤامرة خاصّتي عندما يحدث هذا: ربما تُباع بعض الملابس المستعملة التي نراها في دول الجنوب العالمي المختلفة وتكون "متبرّعاً بها" من قبل الدولة الصهيونية إلى زبائنتها في تلك الدول، وذلك لتخدم رأس المال بشكل فعّال وتضمن أن صناعة الملابس المحليّة لدينا تتوقّف عن الوجود عند أجور قابلة للعيش بالنسبة للعمال.

بالإضافة إلى السجّانين، واحدة منهن تبدو "بوتوكس بيتي 2 [جزء عمليات التجميل]" فيما الأخرى أكثر طبيعيّة "نورمال" ومظهرها أقلّ روبروتية، كانت معي إقبال، ثم أتت رباب، وهي مصرية-كندية. أعطينا تيشيرتات بيضاء، وسترات رمادية، وبناطيل مطابقة. كانت البناطيل صغيرة جداً عليّ وعلى إقبال. وبينما ننتظر أن تحضر السجّانة الطبيعيّة "نورمال" المقاسات المناسبة لنا، نكون قد شهدنا الثورة المصريّة شخصياً طُلب من رباب خلع حجابها وارتداء الملابس التي أعطيت لها، لكنها رفضت الخروج دون حجابها، وقالت بأسلوب مهذب جداً، لكن بحزم: "لن أخرج هناك وشعري مكشوف أمام كل هؤلاء الرجال. أسفة." لم تعرف "بوتوكس بيتي 2" كيف تتصرّف، وصرخت، لكن رباب لم تتحرّك. عندما عادت "نورمال"، صاحبة الرتبة الأعلى، وسمعت ما يحدث، اكتفت برفع كتفيها وسمحت لرباب بوضع حجابها. إقبال أيضاً رفضت خلع حجابها، وفي تلك اللحظة، وعلى الرغم من كوني ملحده، تمنيت لو كان لديّ حجاب أيضاً لكي أزعج "بوتوكس بيتي 2". بعد ذلك، كانت الزيارة التالية للطبيبة والممرضة، اللذين يقتصر مفهومهما للفحص الطبي على أمر شكلي سريع: الطول، والوزن، وضغط الدم. لا أستطيع التصديق أن دافعي الضرائب الأمريكيين يدفعون مقابل هذا المستوى الأساسي من الخدمة. ثم أخذ بنا إلى الزنازين.

تطلُّ الزنازين على ساحة أَسمنتية بمساحة 400 متر مربع، مرسوم عليها خطوط سأكتشف معناها بعد يومين عندما يُسمح لنا بالخروج لمدة ثلاث ساعة، الفترة التي لا يُفترض أن نتجاوز خلالها حدود ساحة [الفورة]. فوق الساحة، ثمة حُرَّاس يسيرون ذهاباً وإياباً، تماماً مثل السجون شديدة الحراسة في الولايات المتحدة كما تُرى في الأفلام. أمريكيكا [أمريكا كوك كوكلس كلان]، الهدية التي لا تتوقَّف عن العطاء. على الجدار المقابل للزنازين توجد صورة كبيرة لطريق مغبرة وأنقاض وركام جزء الانفجارات على الجانبين، مكتوب عليها بالعربية. يخبرنا رفاقنا القادرون على قراءة العربية أن النصَّ يقول: "غزة الجديدة". أمل حقاً أن تحدث محاكمة نورمبرغ للـ"إسرائيليين" في حياتي، لأنني أرغب في فهم العقل الذي يبتكر هذا المستوى من السادية. قيل لنا أيضاً إن هذا السجن، "كتسيعوت"، هو أقرب نقطة إلى غزة سيصل إليها كثير منَّا في هذه الرحلة.

في الزنزانة رقم 4 التي وُضعت فيها، هناك خمسة أبراش للنوم، وسبع فرشات، ونحن عشر نساء. أعلم أن هذا أكثر راحة بكثير مما يُقدَّم للأسرى الفلسطينيين، وبعضهم لا يتجاوز عمره عشر سنوات، لأنني قرأت كيف تعتبر مجموعات حقوق الإنسان هذا السجن الأسوأ في فلسطين. إننا لا نرى أيَّ أسرى فلسطينيين، لكنهم يقيمون معنا في هذه الزنزانة من خلال رسائلهم المكتوبة بالإنجليزية والعربية على جدرانها. "اسمي... من مخيم جباليا. اليوم هو 2/9/2005. قالوا لي راح ينقلوني، بس ما قالوا لي ع وين." وهناك عدَّة رسائل أخرى من هذا النوع. آخر رسالة في الزنزانة رقم 4، والتي ستطلُّ معي حتى آخر نفس قبل موتي، تقول: "28/9/2025، أنا... من خان يونس. راح ينقلوني، بس مش عارف لوين. اليوم بدت 'إسرائيل' بتنفيذ عقوبة إعدام الأسرى."

في الزنزانة رقم 4، كانت أصغرنا عمرها 30 عاماً، وهي الأخصائية النفسية مريم من سويسرا، وأكبرنا هي الإيطالية جوزيفينا البالغة من العمر 78 عاماً. هناك يابانية، وبلجيكية، وسورية، وألمانية، وبرازيلية وفرنسية، وأنا من جنوب أفريقيا. ولا شك، أنه إذا كنتُ أحاول تدمير التضامن بين الأشخاص الذين يرفعون أصواتهم ضديّ، فهذه ليست الطريقة التي كنتُ سأفعل ذلك من خلالها! في الزنزانة رقم 4، كان بيننا عشر جنسيات، أكثر من القارب الذي كُنَّا فيه وحمل 15 شخصاً من سبع جنسيات. ومرة أخرى، إذا علّمتني الساعات الـ24 الماضية شيئاً، فهو أن المخابرات "الإسرائيلية" هي إلى حدِّ كبير أسطورة الشعب المختار! النساء في هذه الزنزانة متضامنات. نغني كثيراً، ونصدر الكثير من الضوضاء للحصول على ثلاث فرشات إضافية، وقبل نهاية اليوم، نحصل على عدد كافٍ من الفرشات والبطانيات. تأتي الحارسات ويقمن بعدنا كثيراً، على الأقل كلَّ ساعتين إلى ثلاث ساعات، وهذا سلوك غريب جداً. أعلم أنهم يعرفون أن الكراهية تجاه أفعال كيانهم الإبادية تزداد كل دقيقة، لكن هل يعتقدون حقاً أننا، في هذه الزنزانة، سنزداد عدداً كلَّ ساعة؟ في كلِّ مرَّة يأتون فيها لعدنا، يأتون كمجموعة مسلحة بأسلحة ليزر وكلاب... استعراض قوة هائل لزنزانة فيها عشر نساء غير مسلحات. في اليوم الأول، في كلِّ مرَّة يطلبون منا الوقوف إلى جانب الجدار البعيد ليعدُّونا، كُنَّا نمتثل.

نردُّ أغنية "بيلاً تشاو" كثيراً، ونصرخ بصوت عالٍ قليلاً حين نقول "من النهر إلى البحر"، لأن هذا يبدو أنه يزعج حُرَّاسنا. أطلب طوال اليوم مقابلة موظفي قنصليتنا أو محاميّ، ومثل الكثيرين، يتمُّ تجاهلي. المرأة البلجيكية

تعمل في المفوضية الأوروبية، وهي تكبرني بسنتين ومطلّقة، تقول: "لم أشعر يوماً بالحرية أكثر مما أشعر بها الآن، على الرغم من أنني في السجن، وعلى الرغم من أنني على الأرجح سأفقد عملي عند عودتي إلى أرض الوطن." وأنا أردّد بصوت عالٍ كلمات الشاعر الفلسطيني محمود درويش [عن السجن والحرية وتلاشي الحدود] وأتساءل إن كانت زميلاتي في الزنزانة يعتقدن أنني مجنونة قليلاً، كما يُقال غالباً عمّن يقرأون كثيراً في منطقتي من العالم.

سبع منا في الزنزانة رقم 4 يخضن إضراباً عن الطعام على الفور، وبياننا الجماعي: لا طعام لنا إذا لم يستطيعوا إرسال الطعام إلى غرة. كما أننا حقيقة لا نثق بطعامهم. وأظن أن عدد المضربات كان سيكون عشرين لو لم تكن ثلاث ممّن في الزنزانة في ظرف لا يمكّنهن من ذلك. وسيستمرّ الإضراب عن الطعام حتى يتمّ إطلاق سراح كلّ واحدة منّا من السجن "الإسرائيلي". وفي قفص، بالقرب من الزنازين، كان المسؤولون "الإسرائيليون" يحاولون إجبارنا على مشاهدة فيلم "7 أكتوبر". يدركون أن هذا تمرين دون جدوى عندما يعي الناس بدلاً من المشاهدة. سنسمع عرض الفيلم مراراً وتكراراً طيلة وجودنا هناك، لكنهم لن ينجحوا في جعل أحد يشاهده. جوزيفينا كانت الأولى بيننا التي تغادر. أتوا إليها في الساعة الثانية بعد منتصف الليلة الأولى، قائلين: "الطبيب يريد رؤيتك." وقد تعلّمنا بسرعة أن عبارة "الطبيب يريد رؤيتك" هي كلمة السرّ للحصول على تسريح صحيّ قبل الإفراج. في اليوم الثاني، عندما يطلبون منا الوقوف على الجدار للعدّ، نرفض ونستمرّ بالاستلقاء على فراشنا. "ماذا ستفعلون؟ هل ستعتقلوننا؟ هل ستسجنوننا؟" تسأل واحدة منا. يجبن بضرب الباب عند إغلاقه. إذا لم يكن واضحاً طوال الوقت، أصبح واضحاً لنا الآن أن الحارسات "الإسرائيليات"، وهنّ على ما هنّ عليه من التئمّر، يتخبطن عندما نتصدّى لهن. غالباً ما يأتي موظفو القنصليات لزيارة مواطنيهم. وقلوبنا مع رفاقنا ورفيقاتنا الأمريكيتين والألمان لأننا نعلم أنهم لن يجدوا موظفين متعاطفين معهم. وكلّما تمّ استدعاء أيّ منّا لمقابلة موظفي القنصلية، نقول لهم أن يتحقّقوا من الوقت، فالوجبات وزيارات القنصلية هي طريقتنا الوحيدة لمعرفة الوقت.

كما يمكن تخيّلها، لدينا الكثير من وقت الفراغ. ولذا، فإننا بالإضافة إلى الغناء وإحداث الضوضاء عموماً، كنّا ننام كثيراً. التواجد في الزنزانة رقم 4، وفي القسم بأكمله بشكل عام، يشبه إلى حدّ كبير ملاذاً للفتيات المراهقات المشاغبات. ميكاكو من اليابان، البالغة 63 عاماً والأكبر سنّاً بعد مغادرة جوزيفينا، تقودنا في تمارين التمدّد والإطالة. أبدأ قصة يجب على الجميع مواصلة سردها. بدايتي: "لقد جاؤوا لجوزيفينا في الساعة الثانية صباحاً. تركوني هناك، لكنهم لم يعرفوا أن جوزيفينا زوجة أبي...". أتمنّى لو أستطيع أن أخبركم أننا ابتكرنا قصة تستحقّ جائزة بوكر أو تكييفاً درامياً لفيلم على نتفليكس. للأسف، لا. لكننا ضحكنا كثيراً مع كل إضافة للقصة بينما كانت القصة تتدهور!

نذهب أيضاً باستمرار لمقابلة القاضية التي تسأل مرّة أخرى ما إذا كنا نريد المغادرة أم البقاء. لقد أدركنا لاحقاً أن هذا لا يحدث فرقاً كبيراً، لأن الأشخاص الذين لديهم مشاكل صحية ووقّعوا للمغادرة بعد 72 ساعة من الاحتجاز ما زالوا معنا، نحن الذين لم نوقّع. عندما أتواصل مع الإخوة في سجن الرجال بعد الإفراج، أسمع أن الأمر نفسه ينطبق عليهم أيضاً، وفي الواقع، تمّ إرسال اثنين منهم مبكراً إلى أرض الوطن لأنهم كانوا يثيرون

المشاكل بقيادة الآخرين في الغناء. لقد استدعوني في اليوم الثاني لمقابلة القاضية. وبينما كنا ننتظر أن نؤخذ إلى زنازين الأقفاس قبل رؤية القاضية دون محام، تبدأ ياسمين، التي هي جزء من اللجنة التوجيهية لأسطول الصمود العالمي، في توجيه أسئلة لأحد الحراس الواقفين معنا حول سبب قتلهم الأطفال وتجويع الناس. يبتسم بشكل متساهل، لكن بعد ذلك أقول شيئاً يثير حنقه! أقول بأدب شديد: "سيدي، هل تعلم كم يكرهك الناس؟ يمكنك قتل الناس وتشويههم وسجنهم، لكنك لا تستطيع جعل أحد يبكي. كلنا نكرهك. العالم كله يكرهك." يبدو أن هذا مسه بطريقتنا، لأنه نظر إليّ بغضب وصرخ: "اصمتي، ولا تتجاوزي الحد." أصمت، لكن الرسالة قد وصلت.

عندما وصلنا إلى أقفاص الاحتجاز، وجدت نفسي مع ليلي مرة أخرى. وهذه أيضاً المرة الأولى التي أرى فيها مواطنتي فاطمة، لكنني لم أوضع في القفص معها. خمس منا، أنا وثلاث أمريكيات بما فيهن ليلي وامرأة أخرى برازيلية، وضعنا في غرفة منفصلة. وسرعان ما بدأنا بالغناء... كثيراً. ضايق ذلك الحراس لدرجة أنهم طلبوا منا السكوت وطرقوا بقوة فتحة صغيرة تسمح لنا برؤية أخواتنا في القفص. ذهبتنا لمقابلة القاضية دون محام، أربع منا في الوقت نفسه، بينما ستقابل البرازيلية قاضية مختلفة. "هل تودون أن نعيدكم إلى بلدكم؟" كان هذا السؤال. وقد كانت إجابتنا واحدة: "لم نأت إلى هنا طوعاً. لقد تمّ اختطافنا من المياه الدولية ونريد إتمام مهمّتنا." أستغلّ هذا الوقت لشرب الماء لأن ثقتي في مياه الصنبور لديهم قليلة. نعود إلى زنازيننا ويستمرّ العدّ، وأغاني الحرية.

في يوم الأحد، سُمح أخيراً لزنانة رقم 4 بالخروج للاستحمام وممارسة بعض التمارين. عشرون دقيقة. كنت أغتسل في مغسلة الحمام، لكن كنت متحمّسة للاستحمام فعلاً. أعطيت نفسي خمس دقائق لأمشي في المكان المفتوح، وهنا أعرف أنه لا يُسمح لي بالخروج عن الخطّ عندما يصيح الحارس في الأعلى ويشير ببندقيته نحوي. أنا مقتنعة الآن، أكثر من أيّ وقت مضى، أن جميع موظّفي الفصل العنصري "الإسرائيلي" عاجزون عن التحدّث بصوت عادي. هل سيكون من اللياقة أن تتحدّث بهذه القوة على أرض مسروقة، أليس كذلك؟ بعد المشي، أستحمّ، ويمنحني ذلك وضوح ذهني لا يمنحه إلا الاستحمام. وما يتّضح في ذهني هو أنه يجب علينا أن نصبح مصدر إزعاج أكبر مما كنا عليه بالفعل. خلال الليل، احتاجت زميلة لنا في زنزانة رقم 5 تعاني من مشاكل القلب إلى طبيب. وقد قضى مشاغبو زنزانة رقم 4 جزءاً كبيراً من الليلة الماضية يطلبون طبيباً لزنانة رقم 5، ولم يأت أيّ طبيب.

الآن، خارج الزنزانة، عندما تنتهي دقيقتنا العشرين، نجلس بين زنزانة رقم 4 وزنزانة رقم 5، ونرفض العودة إلى زنزانتنا حتى يأتي طبيب لزنانة رقم 5. لو كانت واحدة فقط منا فعلت هذا، كنا على الأرجح سنتعرّض للضرب وللرمي في الحبس الانفرادي أو لشيء من هذا القبيل. لكن لأننا معاً كمجموعة، لا يمكن لأيّ تهديدات أن تجربنا على الوقوف، وسنفضل ذلك فقط ونعود إلى زنزانتنا عندما يأتي المسعف. وبمجرد العودة إلى الزنزانة، بدأنا مجدداً بمناداة الحراس. نقرأ أنه من المفترض أن يحصل الأسرى على ساعة خارج الزنزانة، وأن يحصل المدخّنون على سجاير، ومع ذلك لم تُعط المدخنات سجاير، ونحن حصلنا فقط على 20 دقيقة خارج الزنزانة. دعونا نخرج. لم يصدّق الحراس جراتنا، وأجاب أحدهم: "أنتنّ لستنّ أسيرات، أنتنّ ناشطات!"

في وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم، استدعيت أنا وكاري وزهيرة وفاطمة. بعد أربعة أيام من اعتراض الأسطول، وثلاثة أيام منذ وصولنا إلى سجن "كتسيبوت"، سندهب أخيراً لمقابلة موظفي القنصلية. عندما وصلنا إلى القفص حيث سلتقي بهم، قدّموا أنفسهم واقترحوا أن ننتظر ماندلا ورياز. وأثناء انتظارنا، أخبرنا موظفو القنصلية أنهم غادروا القدس في الثامنة صباحاً، وكانوا في "كتسيبوت" منذ الساعة الحادية عشرة، والآن الساعة الثالثة بعد الظهر. عندما اجتمعنا بهم أخيراً، كان الأمر مثل لمّ شمل العائلة. وما أن بدأنا بعرض قضيتنا على المسؤولين، حتى قال أحد "الإسرائيليين" إن الوقت قد انتهى. لقد كانت لدينا دقيقتان فقط، وكان الأمر غريباً. يبدو أن المسؤولين كانوا مستعدين للاستسلام، لكننا أحدثنا ضوضاء جماعية وطالبنا بعشر دقائق. في نهاية المطاف، وافق "الإسرائيليون" على خمس دقائق إضافية. غادرنا الاجتماع بخيبة أمل لأنه بدأ أن المسؤولين يتكون كل شيء في أيدي "الإسرائيليين". "لدينا مجموعة واتساب مع الوزارة، والرئاسة، وعائلاتكم، وتحالف حركة المقاطعة في جنوب أفريقيا." وكما تقول الأمهات النيجيريات: "صقّ لنفسك!"

في وقت مبكر من المساء، وبعد إخراج المزيد من الأشخاص، فُرقت الزنزانة رقم 4. استدعيت أنا وميكاكو وطلب منا أخذ بطانياتنا. ذهبنا إلى الزنزانة رقم 13 حيث نحن الآن مع بعض الجنوب أفريقيّات والمكسيكيّات. تلقّت المكسيكيّات مكالمة من سفيرهنّ عبر حارس متعاطف للاطمئنان على حالتهن. وفي تلك اللحظة، قرّرت الجنوب أفريقيّات أن السفارة المكسيكية تمثّلهن! يأتي الحراس تقريباً كل ساعتين لعدّنا. لم نعد نتظاهر بالانصياع لمطالبتهم بالوقوف على الجدار. إذا كان الخمول لا يتسبّب لنا بالملل حتى الموت في هذا السجن، فيبدو أنهم سيعملون بجدّ أكبر لتحقيق ذلك من خلال عدّنا عدّة مرات. ربما هم يشعرون بالملل مثلنا، وهذا شكل من أشكال التسلية بالنسبة لهم، أو ربما ليست لديهم مهارة في الحساب، وأظن أن الاحتمال الأخير هو الأرجح.

نقلنا إلى الزنزانة رقم 10 يوم الإثنين. هناك سبع منا في الزنزانة، أربع جنوب أفريقيّات وثلاث مكسيكيّات. تُستدعى المكسيكيّات لمقابلة موظفي قنصليتهنّ. وعندما يعدن، يخبرنا أن المسؤولين قالوا لهنّ إنه سيتمّ إطلاق سراحهنّ عند جسر الملك حسين بواسطة المسؤولين "الإسرائيليين" في اليوم التالي. تنهّدت الجنوب أفريقيّات متمنّيات لو تكون لديهنّ معلومات مثل المكسيكيّات. إن عدم المعرفة قد يؤدّي أحياناً إلى عدم القلق، لكنه أحياناً أخرى يؤدّي إلى القلق الشديد. نعلم أن سفارتنا في رام الله تُعتبر أرضاً فلسطينية، وأن جنوب أفريقيا، أخذاً بعين الاعتبار رفعها قضيتين [ضدّ "إسرائيل"] لدى محكمة العدل الدولية والمحكمة الجنائية الدولية، تُعتبر دولة معادية من قبل دولة الفصل العنصري، لكن من المؤكّد أنه كان يمكن تمرير رسالة عبر سفارة صديقة؟ ربما المكسيك؟ لكننا كنّا قلقات بلا داع، ففي وقت متأخر من بعد الظهر، استدعينا من الزنزانة لزيارة الطبيب. نعلم الآن أننا سنغادر و المكسيكيّات معاً.

في الساعة الرابعة صباحاً، أيقظنا حراس الأمن وسمحوا لنا بالاستحمام. غادرنا زنزانتنا بعد نصف ساعة، وضعنا الحافلات. ورغبةً في إحداث الإزعاج مرة أخرى، سألت إحدانا الحارس على الحافلة قبل أن تغادر: "هل يمكننا الذهاب إلى الحمام؟" فأجاب: "لا." وبدأنا بمضايقته بترديد أغنية "بيلاً تشاو". وعندما غادرت الحافلات ذات

النوافذ العالية التي لا يمكن رؤيتنا من خلالها، استطعنا أن نقف ونرى غزة في الأفق: قريبة جداً، لكنها بعيدة. وكنا نعلم أيضاً أنه فيما نراها، ربما حتى الليلة الماضية، كان هناك المزيد من الفلسطينيين الذين يكون عائلاتهم التي قضت على يد نظام فصل عنصري متعطشٍ للدماء. لكن على هذه الحافلة، مع هؤلاء النساء المتحدرات في حب الإنسانية من دول مختلفة، نعلم أننا لن نتوقف عن الهتاف من أجل فلسطين ومن أجل حرّيتنا الجماعية. ونؤمن أنه يوماً ما، سنكون جميعاً أحراراً، وأن الخير سينتصر على الشرّ